مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 11 - 33 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تمثلات الهويّة في رواية فضل الليل على النهار للروائي الجزائري "ياسمينة خضرا" أنموذجاً

Identity Representations in the Novel "What the Day Owes the Night" of the Algerian Novelist YasminaKhadraas a Model

نهاد حسني[1] * ميلود قيدوم[2]
NOUHED HASNI[1,] MILOUD GUIDDOUM [2]
جامعة 8ماي 1945 قالمة (الجزائر)، مخبر الدراسات اللغوية والأدبية
Laboratory Of Linguistic and Literary, University May 8TH 1945
Guelma- Algeria.
hassninihad@gmail.com [1]
miloud.Gguiddoum@Ggmail.com. [2]

تاريخ الإرسال:2020/11/04	تاريخ القبول:2020/12/07	تاريخ النشر : 2021/06/02

ملخص البحث

نناقش في هذا المقال مسألة الهويُّة في الرواية الجزائرية المعاصرة، فبين المركز، والهامش أثار الروائي الجزائري سجالاً محتدماً بين أقطاب متناحرة، ما جعل مسألة الهويّة، تبدو معضلة أساسية في هذه الرواية، ومنهم الروائي ياسمينة خضرا الذي أبرز كيف تمسك الغير بهويّته الضيقة وكشف الاختلاف والتمايز، وبين هذا وذاك حاول التعمق في الذات الجزائرية وإظهار خصوصيتها وتأصيل هويتها إزاء نظيرها الآخر، وعليه فقد يكون ياسمينة خضرا قد سلط الضوء على مسألة الهويّة حينما عكف على توصيف العلاقة بين الأنا والآخر.

الكلمات المفتاح: الهويّة، اللقاء الحضاري، ياسمينة خضرا، الآخر. الهوية الثقافية.

Abstract :
In this article, we discussed the issue of identity in the contemporary Algerian novel, between the center and the periphery, the Algerian novelist sparked a heated debate between rival poles, which made the issue of identity appear to be a fundamental problem in this novel, including the novelist Yasmina Khadra, who highlighted how others held on to his narrow identity and exposed the difference and distinction, and between this and that one, he tried to delve into the Algerian self, show its privacy and root its

* نهاد حسني: hassninihad@gmail.com

identity in front of its other counterpart. Accordingly, Yasmina Khadra may have shed light on the issue of identity when he embarked on describing the relationship between the ego and the other.
Keywords:identity, civilisation encounters, Yasmina khadra, the other, cultural identity.

تمهيد:

صدح السرد الجزائري بقضايا استقطبت إلحاح الروائيين ردحاً من الزمن، فاتجهت أقلامهم نحو قضية، طالما كانت من اهتمامات الفكر الجزائري، قضية حملت في ثناياها ألم ومعاناة فئة ضلّت طريقها بانغماسها في الآخر، فناقشها كتاب كثيرون على اختلاف توجهاتهم ورؤاهم في كتاباتهم الأدبية إيمانا منهم بدور الأدب في محاكاة الواقع، لقد حاول الروائي الجزائري أنْ يخطو خطوات ثابتة نحو قضايا مست الإنسان، والإنسانيّة وكانت قضية الهويّة مقصده ومحل الدراسات النقدية المعاصرة.

ولعل قارئ أثر (**فضل الليل على النهار**) (لياسمينة خضرا) لا يسعه إلاّ أنْ يُلاحظ ذلك التّفاعل الخلاق بين حضارتين متناقضتين، أو بين هويتين متناحرتين، حتّى إنّه يعزّ عليه أحيانا أنْ نتبيّن بيسر حقيقة الفن الأدبيّ الّذي يتحرّك في أنحائه هذا الأثر الذي حمل بُعداً هوويّاً، سواء كان صريحاً أم مضمراً خلف أنساق ثقافية حاكت حضارة الآخر، وكشفت الوجه الحقيقي للمجتمع الجزائري في حقبة زمنية حرجة.

إنّ هذا الأثر الأدبيّ توفر على زخم كبير من الدلالات والإيحاءات، الّتي منحت للقارئ فرصة للقاء الآخر بكل تجلياته، وعليه يُمكن طرح التساؤل الآتي: كيف تفاعل (ياسمينة خضرا) مع خصوصية الهويّة في روايته؟ هل صورة الآخر التي نقلها الروائي مؤسسة على الاحتقار والتهميش أم أنّها مبنية على الاحترام المتبادل؟، ولكي نحصل على جواب رأينا أن يكون لدراستنا عناوين فرعية بدأناها بالعنوان التالي:

1/مسألة الهويّة واللّقاء الحضاري:

تُعَدُّ مسألة الهويّة من أكثر المسائل إثارة في السرد الجزائري، لأنّها برهنت ولمدة طويلة على أنّها أهم ما تداوله الروائي الجزائري في أعماله، وإنْ كان لكل كاتب طريقته الخاصة، في رصد المحمول الثقافي في خطابه السردي خاصة فيما يتصل بالهويّة الثقافية، وأبرز تبعاتها، فباتت الأعمال الأدبيّة

تتوق إلى استبطان كوامن الذات الإنسانية، ومعرفة السبب الرئيس لعزوف الأنا أمام مواجهة الآخر، ما ولّد صراعاً أزلياً، انعكس على طبيعة العلاقات القائمة بين الإنسان والإنسان.

إنّ قضية الهويّة وما تتضمنه من مفاهيم لا حصر لها تثير الكثير من الغموض، نظراً لتشعب مفهوم المصطلح "فقد أصبحت تشغل اهتمامات الكثير من ميادين البحث، مما زاد في تعقيده، وعدم إمكانية تحديده، وعدم القدرة على إعطائه مدلولاً صالحاً نتفق حوله"[1]، وقد شاع استخدام مصطلح الهويّة في المجال الأدبي الروائي خاصة لأهميته البالغة، لإثارته قضايا تمس الفرد الجزائري الذي ظل يبحث عن انتمائه، وهويّته المفقودة في خضم توافد ثقافة الآخر، ولهذا نجد مفهوم الهوّيّة "يُطلق على نسق المعايير الّتي يُعرف بها الفرد ويُعرّف وينسحب ذلك على هوية الجماعة، والمجتمع، والثقافة..."[2]، وبالتالي يرتبط مفهومها بالبُعد الإيديولوجي أكثر منه بالبُعد العلمي، باعتبار أنّ هويّة الفرد يمكن التعبير عنها، من خلال الدين، أو اللغة، أو الوطن، وكلها عناصر متغيرة حسب طريقة استعمالها، ومن هنا طُرح سؤال الهوّيّة كأكثر المفاهيم المركزية حضوراً في مجالات علمية متنوعة، إذن "فالهويّة خاصة... لا تصان إلاّ بتمسك الشعب بثقافته الّتي ورثها عن أسلافه"[3]، وهذا هو جوهر الصراع اليوم، فعملية التمادي في التجنيس الحضاري الّتي نشهدها حالياً باتت "تهُدد خصوصية الإنسان الّتي سرعان ما يفقدها تحت وطأة الشائع، والغالب الذي يكسب سلطته من شيوعه وغلبته، لا من أصالته وتميزه"[4]، كلّ هذا ولّد أزمة معرفية جعلت الكاتب الجزائري يوازن بين بنائه الثقافي الذي عاش فيه، وبين انفتاحه التام على حضارة، وثقافة الآخر النقيض، فصاغ فكره وشخصيته، في شخصيات عمله الروائي ليخلق نوعا من التأزم الوجداني بين قبول الغير ورفضه.

إنّ الاستعمار باعتباره وجها من أوجه المثاقفة، جعل من مسألة الهويّة واللّقاء الحضاري، أهم إفرازاته، لأنّه استطاع بفضل غزوه للبلدان، أنْ يبسط ثقافته، ويقضي على ثقافة ذلك البلد، ما نجم عنه صراع حضاري، ليس وليد اللحظة بل هو موجود منذ الأزل، إلاّ أنّ كل حضارة تسعى جاهدة للحفاظ عن هويتها وتميزها عن غيرها من الثقافات، خاصة في ظل ظهور قوى تحاول فرض ثقافتها وهيمنتها على الثقافات الأخرى، ما شكّل خطراً يُهدد الهوُيّة المحلية، وقد تعرض (صامويل هنتجتون) إلى مصطلح الحضارة وأكد على أنّها "الكيان الثقافي الأوسع الذي يضم الجماعات الثقافية مثل القبائل، والجماعات العرقية والدينية، والأمم، وفيها يعرّف النّاس أنفسهم

بالنسب، والدين، واللغة، والتاريخ، والقيم، والعادات، والمؤسسات الاجتماعية بدرجات متفاوتة وفقاً للجماعات الثقافية الداخلة تحت حضارة واحدة"[5]، وهو بهذا الطرح يُبرز مكونات الهويّة بطريقة مغايرة، لتظهر العلاقة الوثيقة بين الهويّة، والحضارة، ثم يضيف قائلاً: "إنّ الحضارات هي القبائل الإنسانية الكبرى، وصدام الحضارات صراع قبائلي على نطاق عالمي، والفروق الثقافية هي التي تحتل الأساس والمركز في التصنيف والتمييز بين البشر اليوم... وتتحدد الهوية الثقافية بالتضاد مع الآخرين، وفي الحروب تترسخ الهويّة، ويتحقق التماسك الاجتماعي بدلاً من الانقسام الذي يتطلب زواله عند وجود عدو مشترك.."[6].

يتداخل مفهوم الهويّة مع مصطلح الحضارة في مواضع عديدة، فلولا الهويّة لما حافظت الأمم على حضارتها، وإنْ كان كل واحد فيهما يُكمل الآخر، ولكن مع ذلك لا نستطيع التشبث بهويتنا المحلية، لأننا نلغي مبدأ الحوار والتفاعل مع الحضارات الأخرى، "وهذا ما يؤدي إلى بروز نوع من الإحساس بالتفوق العنصري، وبروز الهيمنة الثقافية، كمّا أنّه ليس في تنوع الهويات وتعدد الخصوصيات، ما يتعارض وقضاء المصالح المشتركة بين الشعوب، والأمم، في إطار التعاون الإنساني القائم على قاعدتي التعارف والتعايش، وإنّما ينضوي هذا التنوع على عناصر تغذي الميول الإنسانية الفطرية وتدفعها إلى امتلاك أسباب التقدم والرقي بحافز من التنافس الطبيعي وبوازع من التدافع الحضاري"[7]. فهذا التنوع الثقافي الذي تزخر به الحضارات، هو جزء يسير من مفهوم الهُوية، كون الهويّة قادرة على استيعاب ثقافة حضارات متنوعة.

شكّل الحوار بين الأنا، والآخر، أو بين الشرق والغرب قضية محوريّة في الدراسات المعاصرة، "فلا أحد يجهل أنّ الحضارات الإنسانية المتعددة دخلت في علاقات، وتصادقت، وتصادمت بقدر ما تحاورت، وتبادلت التأثير... الصراع نفسه كان أحيانا أسلوباً لمعرفة الآخر، ومدخلاً لعلاقة مع الآخر، ولم يمنع التأثر بالآخر، ولا التأثير فيه، فالغرب أخذ الكثير من العرب كمّا أنّ العرب أخذوا الكثير من الغرب خلال الحروب الصليبية..."[8]، فمن خلال هذا القول ندرك بأنّ الحضارات تتلاقح، وتتفاعل، وتختلف، وتتنوع، لتشكل حضارة أمة بأكملها، وهو ما أشار إليه (هنتنجتون) حينما قال: "الغرب يمثل عنده حضارة أو ثقافة تُميزه عن غيره، وليس ممثلاً لحضارة عالمية يمكن أنْ تضم سائر أقطار العالم، وذلك لأنّ حضارة الغرب تمتد جذورها في التاريخ إلى أكثر من ألف عام..."[9]، ويرد هنتجتون على الدعوى القائلة بأنّ حضارة الغرب ينبغي أن تكون

حضارة العالم بتفرقته الصارمة بين التحديث والتغريب، "فالتحديث هو الذي يمكن أنْ يشارك فيه العالم غير الغربي، وإن كان الغرب هو تربته الأصلية، منذ القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، بينما كان الغرب قبل التحديث غربياً منذ زمان بعيد..."[10]، إذن فالمثاقفة الغربية عموماً، اختزلت ذلك التفاعل في التنميط، والاختزال، والتهميش، بما يخدم مصالحها، وهذا التباين في المواقف هو الذي صور تلك العلاقة الحضارية بين الأنا والآخر.

وإذا تأملنا في الرواية الجزائرية سواء المكتوبة بلغة أجنبية، أو باللّغة العربيّة، نجدها احتضنت سؤال الهوّيّة بكثير من الإسهاب، "بل مازال إلى وقتنا الحالي هو السؤال الرئيسي في الثقافة، والإبداع"[11]، فغدا بمثابة بطاقة شخصية للعمل السردي وللكاتب، وجواز سفر للقارئ ليبحر في عوالم مهاجرة، يكتشف من خلالها ثقافة الأجنبي الذي ظل يتغنى بحضارته، وتاريخيه.

لعل الظروف السياسية الّتي جمعت بين الأنا والآخر (الجزائري/ الفرنسي)، لاسيّما الاستعمار ومحاولة طمسه للمعالم الهويّة الجزائرية، جعل الروائي الجزائري يتمسك بمقومات هويته الوطنية فظهر ذلك في أعمالهم الأدبية. ويبدو جلياً "أنّ الواقع الثقافي وتطوّره كان خاضعاً للواقع السياسي الذي عاشته الجزائر ومن ثم فقد حمل هذا الأدب الجزائري على عاتقه كل تناقضات الحركة الوطنية، الأمر الذي شعّب اتجاهاته الفكرية والإيديولوجية، وأدواته التعبيرية، بحيث استغلت اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية كسلاح وجهه كُتّاب مناضلون إلى صدر المستعمر، وهذه حالة ربما انفردت بها الجزائر عن غيرها من الأقطار العربية"[12].

لم تتوقف الرواية الجزائرية عن طرح تلك الثنائيات الّتي ترسخت في مرحلة الأدب الكولونيالي، والّتي أُعيد طرحها من منظور معاصر وتوصيفها بالأنا والآخر، فجاء بطل الرواية يتخبط ضمن دائرة البحث عن هويّته المفقودة، والّتي تنازعتها عولمة الآخر، فانساق الأديب إلى تعزيز مبدأ التعايش السلمي، والولوج إلى الضفة الأخرى عن طريق الحوار البناء، "لأنّ المشاركة والحوار الحضاري إرادة حضارية قبل أنّ تكون فكرية أو أمنية أو رغبة"[13]، ولا تتحقق هذه الإرادة الحضارية في حوار التنوع الثقافي إلاّ بوعي كلا الطرفين، وهذا ما عمل الروائي على تحقيقه في نصه، "فعندما تندمج الروح الشرقية للجزائر مع الثقافة الفرنسية الّتي يستخدمها الكُتاب الجزائريون تكون النتيجة أدبا أصيلاً فالأدب الجزائري مع ما له من خصائص عربية عديدة تُميزه، يختلف عن

الأقطار العربية حيث لم يكن للاستعمار تأثير مشابه على التعليم والثقافة"[14] والإبداع، بل نوّه إلى أهمية الآخر في تحقيق التوازن بين الحضارات.

لجأ الروائي إلى معالجة ما يُسمى برواية اللّقاء الحضاري في طروحاته الفكرية والنقدية، فبرع في تجسيد ظاهرة اغتراب الفرد الإنساني –وبخاصة الفرد الجزائري–الذي ظل يبحث عن هويّته، انطلاقاً من الآخر، فأخذت الهوّيّة حيزاً لا يُستهان به، وباتت شخوص الرواية تُعاني من حالات الانهزام، والاغتراب، والتمزق الداخلي، وظل الانتماء إلى الوطن ملاذا يحتضن عذاب الذاكرة، ويضطر الإنسان إلى اختيار الآخر إعجاباً لحضارته، وهروباً من واقعه الذي فرضه هذا الآخر، فيتجزأ الانتماء ويشوه، بدل أنْ يكون منفتحاً على ثقافة الغير، محافظاً على أصالته، وانطلاقاً من هذا يظهر البطل الروائي شخصاً عادياً فقد كيانه، ضائعاً بين هويتين متناحرتين، تتقاذفه تيارات الحياة اليومية، وتدميه مشاكلها وتعقيداتها.

يُمكن القول إنّ مسألة الهويّة واللّقاء الحضاري، أضحت من أهم مباحث السرديات، "فروح العصر تكمن في هذا التنوع الآخري الهائل الذي يتشكّل منه عالمنا الحالي، ويزيده إثارة، ويعاظم طرح تحدياته على الوعي بالتباساته المتواترة بالأنا، والإشكالات الحضارية الراهنة المتمثلة في مجمل مآزق الهوّيّة وأزمات الانتماء، وخصوصاً في ظل هذه المتغيرات المتسارعة على الصعيدين المحلي والعالمي"[15]، وعلى هذا الأساس يحدث شرخ في الهويّة ذاتها، ويصبح بطل الرواية الحضارية يتوزع بين هويّته وانتمائه الديني، والقومي، وبين مواطنته الّتي يعيشها في بلد آخر، وهو في روايات اللّقاء الحضاري يكون الغرب غالباً وجهته المفضلة.

2/تمثلات الهُوّية في رواية "فضل الليل على النهار" لياسمينة خضرا.

ولج (ياسمينة خضرا) عالم الآخر حينما عكف على مجاراة وقائع تاريخية تركت صداها في تاريخ الجزائر المستعمرة، ما جعله يخوض تجربة روائية رائدة في هذا المجال، مستعينا بما حواه الخطاب الكولونيالي من صور لاقت هوى في نفسه وعكست شعورا بالتنافر دلّ على شرخ في العلاقات بين التاريخ والذاكرة، استمر قائما بينهما، فانعكست تلك العلاقات ثورة في النص السردي كونه خزانا لجلّ التفاعلات التاريخية والسياسية والثقافية ، الّتي تجمع بين البلدين، ولأنّ الرواية تُشكل نسقا ثقافيا يحتوي على مضمرات شتى، فقد حاول الروائي أنْ يغوص في أبعاد الهوّية المتشظية لشخصيات روايته، فرسم ذلك السجال المحتدم والصراع المنبثق بكلّ مصداقية، فطغت فكرة

(الإعجاب بالآخر، وبحضارته)، وباتت سبل الوصول إليه رغبة جامحة تعتري نفس الجزائري في خضم تلك الأوضاع المزرية، حيث الفقر والجوع، والحرمان عنوان المعاناة، وبين خصوصية المستعمَر والمستعمِر، برهن (ياسمينة خضرا) على مدى انشقاق العلاقات، وفتورها، من خلال خطاب كولونيالي صارخ يبرز أهمية الذات أمام ارتدادات الآخر.

استوعبت رواية (**فضل الليل على النهار**) للروائي الجزائري (ياسمينة خضرا) أزمة الهويّة والانتماء منذ الوهلة الأولى، فقدمت نموذجاً واضحاً للأدب الكولونيالي من خلال حوار كلا الطرفين (المستعمرَ والمستعمِر) بطريقة تفاعلية بين ثقافتين مختلفتين، وحضارتين متناقضتين لم يكن اللقاء المرتقب كما هو متوقعا، فاختزل بذلك النّاص مسألة الهُويّة لتصبح شعارًا آنياً يُصور حالة الاغتراب، والتمزق الداخلي، والشعور بالضياع الذي بات يُهددُ حياة البطل (يونس/جوناس)، فيظهر شخصاً اغترابياً ضائعاً يعيش ضمن زمنين متضاربين. فكانت رحلة يونس نحو الآخر رحلة الوعي الجريح، رحلة ذات مغتربة نحو عوالم حضارة غربية، حققت مبتغاها كون "الفرد الغربي يرى في الشرق القريب مكانا لتحقيق الطموحات الكولونيالية"[16]، وهو ما عمد الروائي إظهاره في المتن السردي، فبين الماضي وانكساراته، والحاضر وأماله، بقي يونس يتخبط ضمن نطاق هووي محدود، لتتسع الهوة بينه وبين أفراد عائلته الّتي منحته حياة جديدة، وانطلاقا من هذا الوضع، نجد أنّ الروائي (ياسمينة خضرا)، امتطى القضايا الراهنة في مجتمعه، فاستبطن تفاصيل الشعب الجزائري حين لامسّ جلّ النزاعات الّتي تحدث بين طبقاته، فجاءت هذه الرواية صورة صادقة لأحداث حقيقية عصفت بالمجتمع الجزائري في حقبة زمنية معينة. يحدث الصدام الهووي في هذه الرواية من خلال الشخصية المحورية وما تحمله من خبايا وتناقضات، فبين (يونس وجوناس) يكمن الصراع، (يونس) بالنسبة للجزائريين، (وجوناس) بالنسبة للفرنسيين، فتمخض عن هاتين الهوّيتين المتقاتلتين صراع داخلي عميق، ولّد إفرازات كثيرة، (يونس) هو ابن إحدى العائلات الجزائرية المهمشة، المسحوقة قهراً وجوعاً وألماً، فرض عليهم الوضع الاستعماري ظروفاً قاهرة، خاصة بعد إضرام النار في أرض والده من طرف أعوان "القايد"، والّتي تحمل معاني الانتماء إلى أرض الأجداد، فاضطر والده المثقل بالديون، أنْ يبيع الأرض بثمنٍ بخس، ويُهاجر من الريف إلى المدينة، وهناك لم يستطع الأب أنْ يعيل عائلته، فيلجأ إلى أخيه الصيدلي(ماحي)، وزوجته الفرنسية (جرمان)،

فيترك لهم (**يونس**) فتستقبل جرمان الفتى بكل صدر رحب، أين تبدأ رحلة الفتى نحو الاغتراب الذاتي، والاستلاب الثقافي.

وجد (يونس) نفسه، يحيا ضمن منظومة فكرية، وثقافية، واجتماعية جديدة، لأنّه في صدام مباشر بين قيم القرية وعقليتها، وبين قيم المدينة، وعقليتها المختلفة، فمسألة الانتماء المتعدد للفتى (يونس/جوناس) لم يستطيع التوفيق بينها، لأنّه كان بحاجة إلى الحفاظ على هويته، والانفتاح الصادق المجرد من العقد على ثقافة الآخر، فأحسّ ضمن هذه الدائرة المغلقة بأنّه مرغم على الاختيار بين التنكر للذات، ونفي الآخر، وهذا الجدال تمركز في عدّة مواضع في الرواية.

توجه الهوّية في هذه الرواية، بمكوناتها ومرجعياتها، حاملها فكرياً وسلوكياً، فهي نمط من الإيديولوجيا تتعلق بأفعال الشخصيات، ونظرتهم، فتُميز كل شخص عن غيره، انطلاقاً من هوّيته، لذلك "لا تُعطى الهوّية مرة واحدة وإلى الأبعد، فهي تتشكل وتتحول على طول الوجود..."[17]، وتأخذ أبعاداً مختلفة حسب وضعية صاحبها، "وأيا كان مقتضى الهويّة: فردية أو كانت جماعية، فإنّها تفترض وجود علاقة بين الذات والآخر، وكل صور المجتمع عن ذاته ليست إلاّ ايديولوجية جزئية يطالب بها من لهم مصلحة في أن يحافظوا على علاقات ما مع السلطة، حتى ولو كانوا يفعلون ذلك غالب الأحوال باسم (الأمة، الوطن، الدين، الثقافة، الحزب..)"[18]، وفق هذا التوجه، كانت رواية (**فضل الليل على النهار**)، حقلاً خصباً لدراسة ملامح الهوّيّة، "فهي تطرح كضمان في مواجهة خطر الإبادة أو الإلغاء من قبل هويّة أخرى"[19]، وبالتالي ظهرت عدّة تجليات للهوّيّة ارتبطت ارتباطا وثيقاً بشخوص الرواية وهي كالآتي:

أ–الهويّة المكانية:

ارتبطت رواية (ياسمينة خضرا) بالمكان الجزائري ارتباطا جوهرياً، حتى غدت معالمه شاهد عيان على معاناة أفراده، فأصبح المكان بمثابة بطل يوجه الأحداث، والشخصيات، وهو بعلاقته مع الشخصيات يكشف الأطر المكانية المختلفة الّتي يجتمع فيها الأفراد ، فيشمل تحديده لمعالم الأماكن الجزائرية، من قرى ومدن وشوارع ومناطق بحرية وبرية، وما يتخلل من مناظر خلابة استرعت انتباه النّاص، وحملتها أرض بلاده، فنجد تنوع الفضاء سمة بارزة في الرواية، "ولأنّ السيادة في هذا اللون من السرد تنعقد للمكان ومشاهده، فإنّ الخواطر المنهمرة كرذاذ المطر لا تبرحه إلاّ إلى ماضيه الغارق في النسيان، وبالتالي فهي لا تبغي أنْ تصنع فيه قصة تقيم من

الأحدوثات حادثة كبرى، متجانسة، تستغرق زمنا مرئيا، وتمر بتحولات خاصة بها، غير التي نعرفها من تاريخ الأشياء"[20]، و بالتالي يصبح العمل الروائي ملازماً للأرض الجزائرية الّتي احتضنت هذه الأحدث.

وللمكان في رواية (**فضل الليل على النهار**) قيمة خاصة، لتحقيق الرؤية السردية الخاضعة للهُوية الجزائرية، فجاء تصوير الأرض مليئاً بالتناقضات الّتي في غالبها تُحدد انتماء طبقات الشعب، فرسم القاص ذلك الوجود من خلال حديثه عن قرية (**جنان جاتو**) أين عاش أبطال الرواية وتعايشوا مع الوضع المزري هناك، يقول (يونس) في هذا الصدد، "كنّا منزوين في أرضنا أشبه بأشباح سُلّمت للقدر، في صمت فلكي لأولئك الذين ليس لديهم شيء مُهم يقولونه..."[21]، كانت الحياة بجنان جاتو أشبه ما تكون بحياة بائسة، وهذا ما صوره لنا السارد على لسان الفتى: "ليست حياة، كنّا موجودين على وجه الأرض، هذا كل ما في الأمر، إنّ استيقاظنا صباحاً يُعَّدُ من المعجزات، وفي الليل حينما نستعد للنوم، نتساءل إن لم يكن من المنطقي أنْ نغمض عيوننا للأبد، مقتنعين أننا تفحصنا جميع الأشياء...تتشابه الأيام بشكل بائس، لا تأتي بالجديد أبدا ولا تقوم عند مغادرتها إلاّ بتجريدنا من آخر أوهامنا النادرة الّتي تتدلى في طرف أنوفنا، أشبه بحبات الجزر الّتي تحرّك الحمير..."[22].إنّ فضاء (**جنان جاتو**) الذي احتضن يونس وعائلته الفقيرة الكادحة جعلت منه فضاءً مأسوياً، مليئاً بالنزيف والألم، الذي أضحى بصمة على جبين الفتى (**يونس**)، فقدمت الرواية ملمحاً أولياً عن الحياة العامة للرواية الذي ستأخذه شخصياتها. اقترن فضاء (**جنان جاتو**) بجميع الأشياء السلبية، "إذ كان البؤس والأوبئة يبيدان العائلات، والحيوانات بعدوانية عجيبة، فيُجبران الناجين على الهجرة أو على التشرّد"[23]، وبعد أنْ صّرح ياسمينة خضرا بواقعية الأحداث، في الرواية يصف القرية الّتي يقطن فيها هؤلاء، "لم تكن القرية ذات شأن، إنّها مكان مُقفر، مثيرة للحزن، بأكواخها الترابية الرازحة تحث ثقل البؤس، بأزقتها الهلعة الّتي لا تعرف أين تجري لإخفاء قبحها... عند أسفل جذوعها، يقرفص البطالون الذين لا يختلفون كثيراً عنها، يشبهون الفزازيع المهملة، المتروكة هنا إلى أنْ تبعثرها الزوابع في الطبيعة"[24]، وكأنّها قرية منسية تجاهلها الزمن.

تغيّر وجه الأرض باحتلال الاستعمار الفرنسي لها فقد سلبها الأمن والفرحة، والهدوء، سلبها الوجود، والحضور لمقدساتها وهويتها حين قام بمصادرة أراضيها عن "طريق حرب شاملة لا هوادة

فيها، بجيوش جرارة، منظمة، ومدربة أحسن تدريب، ومسلحة أفضل تسليح يقودها ضباط محترفون، ويضرم نيرانها جنود مرتزقة مهنتهم القتل، ضد الأهالي العزل في البوادي، والقرى، والأرياف"[25]، ونظراً للمكانة الّتي تحظى بها الأرض عند أهل القرى نجد والد (يونس) يرهن الأرض، بعد أنْ كبلت الديون كاهله، "فقام برهن أرض الأجداد وأدرك أنّه يخوض أخر معركته، وأنّه استخدم أخر خرطوشة له..."[26]. أنزل النّاص الستار على محيط موبوء اجتماعياً، مسلوب أخلاقياً، أفراده يُعانون بصمتٍ كبيرٍ، صُودرت أراضيهم، وممتلكاتهم، وكرامتهم، وإنسانيتهم، حين سُرقت أرضهم ووطنهم، فأخذت القرية أبعادًا متعددة في هذا العمل، تبدأ بكونها محل الانتماء والانتساب مهما جرت تحولات وتغيرات في بنيتها، أو على حياة أبنائها، فيجعل (ياسمينة خضرا) الانتماء إلى القرية، أهم أسباب الوجود بل وإنّ التعلق بها يغدو بحد ذاته شكلاً من أشكال المقاومة ضد أي مستدمر غاشم.

يبدو أنّ ذلك التوحد الوجداني بين الفلاح والأرض يعطي معاني مسكوت عنها في الرواية الجزائرية، لأنّ من يملك أرضاً، يملك جسداً، وروحاً، وقلباً نابضاً بالحياة فلا يستطيع هجر أرضه، ويتجلى في حديث (عيسى) مع ابنه: "لماذا لا تحاول أنْ تفهم يا ولدي؟ قلتُ لك: حالتي في الحضيض الأسفل ولكنني لم أمت بعد. أنا نادم أشد الندم لأنني لم أستطيع توريثك أرض أجدادك، ولا يمكنك تصور مدى ندمي وألمي، ولكنني لا أستسلم، أستميت في الشغل كي أسترجع قليلاً مما ضاع..."[27]، تتساوى الحياة مع امتلاك الأرض كما يتساوى الموت مع فقدان الأرض، فاستمرار الفلاح في العيش وبقائه على الرّغم من كل هذه الظروف الصعبة تمر بهذه المعادلة لأنّ سلب الأرض هو انتزاع لكيانه، وهذا ما يجعل من الفضاء (الأرض/القرية)، أبرز مظاهر الهوّيّة الّتي عانى منها الجزائري حقبة من الزمن.

يحمل الفضاء هنا بُعدًا رمزياً، فهذه الأرض تتعلق بمسيرة الأجداد وثورتهم الخالدة، وهذا الواقع الاجتماعي المرّ الذي كشف عنّه النّاص لم يكن بعيداً عن أرضه الأم إذ نقل تجربته الإنسانية "وقدرته على تحديد وعي الإنسان بالواقع بغية الوصول إلى عمق التجربة بطريقة فنية، تجمع بين عناصر الواقع، وتكشف عن التناقضات الكامنة فيه"[28]، فيظهر أنّ المكان القروي لعب دوراً مهماً في الصراع حول تحديد هويّة المكان.

تُشارك المدينة، من حيث هي ظاهرة مكانية بارزة في رواية (**فضل الليل على النهار**)، المكان القروي موضوعياً ودلالياً، من حيث أنهما يُسهمان في تعميق الدلالة على نمط أصيل من الثقافة القائمة بينهما، ويبرز نمط العيش المقصود بالمقارنة بين ما يتجلى في النص من مظاهر الثقافة، وبين ثقافة المكان الجزائري، الذي يُشكل مركزا مهمّا لاستجلاء ملمح الهُوّية، والمدينة بطبيعتها أكثر عمقاً، وإثارة من القرية، لسعتها، وثرائها، وقدرتها على احتواء ثقافات شتى، ما يجعلها ذات روح متعددة الدلالات.

خلف وجوه مهمشة، وأحياء مدمرة، يظهر الوجه الآخر للفضاء، فضاء حضاري بامتياز، ويتضح ذلك في اندهاش يونس أثناء تنقله إلى المدينة، "... ها هي المدينة لم أكن أتصوّر وجود تجمعات سكانية بهذه الضخامة، إنّه لشيء مبهر حقاً، في لحظة ما، خلف الساحة، تتراصف المنازل إلى ما لا نهاية، في تدرّج جميل، الواحدة وراء الأخرى، بشرفات مُزهرة، ونوافذ عالية، قارعة الطرق معبّدة ومحاطة بالأرصفة..."[29]، يحضر فضاء المدينة في المصفوفة السردية، بما ينطوي عليه من عناصر محلية، عمرانياً وسكانياً وثقافياً، بالمعنى الواسع للثقافة، "ترتفع المنازل الجميلة جداً من جميع الجهات، منسحبة خلف سياجات حديدية مدهونة بالأسود، مهيبة وأنيقة، تستريح العائلات بداخل الشرفات، حول طاولات بيضاء مزينة بقنيات..."[30]، نلاحظ في هذه الرواية ذلك التنوع في توصيف الأمكنة، إذ بدأت الحركة داخل المنجز الروائي بوتيرة متباطئة، من الأرياف، والأقاليم، والدروب الوعرة إلى أنْ توسعت نحو المدن المركز الحساس للحضارة وقلب العاصمة. تظهر هويّة المدينة عبر تقاطع مشاهدها التكوينية، في الساحات، والشوارع، والمقاهي، والشرفات، يُضاف إلى ذلك طبيعة علاقات هذه العناصر مع الناس، فبين السارد التفصيلات العينية، وركز على الأبعاد التاريخية، والجغرافية، والحضارية المشكلة لبنية المدينة.

كان (يونس) وسط هذا الصخب مولعاً بالمدينة الأوروبية يقول: "وهران مدينة رائعة، تملك نبرة فريدة تضيف إلى مرحها المتوسطي انجذاباً لا يذبُل، تنجح جميع مبادراتها، تعرف متع الحياة ولا تعيشها في السر، أمسياتها ساحرة... من شرفتنا، كنّا نراهم يحرقون السجائر ونسمع أحاديثهم، تنطلق بذاءاتهم الغامضة وسط الظلام كما النيازك..."[31]، لم تبرح المدينة عمل (ياسمينة خضرا) بتفاصيلها، فقد وصف إعجاب الأفراد بالطبيعة الخلابة الّتي تتمتع بها وهران، فتعلق بها (جوناس) أيما تعلقاً، وبدأت رحلة التماهي نحو الآخر انطلاقاً من اختلاف الأمكنة الّتي قطن بها.

في خضم هذا التنوع الذي تزخر به الرواية، لم يتوان النّاص في ذكر بعض القرى ذات المعمار الفني الجميل، وخص بالذكر (**ريو صالدو**) القرية الاستعمارية بامتياز يقول (جوناس) عنها: "أحببت ريو صالدو كثيراً، فولمان صالسوم عند الرومان، المالح في أيامنا، على كل حال، لم أكف عن حبها... كانت قرية استعمارية رائعة، بأزقتها المُخضوضرة والمنازل الفاخرة، تبسط الساحة الّتي تنظم فيها الحفلات الراقصة، وتغني فيها أشهر الفرق الموسيقية..."[32]، إنّ هذه القرية في بعديها الاجتماعي، والطبيعي، تحمل ملامح القرى الفرنسية، وبعبارة أدق بُنيت على أنقاض المستعمر، "تتربّع ريو صالادو وسط كرومها وخزّانات خمورها ، وتترك نفسها تُتذوّق على طريقة النبيذ البلدي، وهي تترقّب بين موسمين لقطف العنب نشوة الأيام القادمة الحالمة...كان عمي على صواب، ريو صالدو مكان مناسب لإعادة حياة جديدة"[33]، أضفى التنوع في الأمكنة سحراً خاصاً، فالغرض من هذا التباين هو الكشف عن سياسية التوسع الاستعماري، الّتي تغلغلت حتى النخاع داخل الأرواح المزهقة، فالوجه الآخر للزحف الغربي، طال المدن، والقرى، وهذا الإعجاب الشديد، بهذه الأرض ما هو إلاّ هروب من حالة التهميش، والإحباط، والاستلاب، الّتي عاشها الفتى جوناس. إنّ الانتماء إلى المكان، يُعَدُّ أحد أوجه الصراع الهوّوي الذي طال الشخصية البطلة (يونس/جوناس)، إذ لعب دوراً مهماً في تكوين شخصيته، فخاض تجربة فريدة حين نظر إلى الأمكنة الّتي ارتادها، نظرة إعجاب، فتشكلت معه علاقة بفعل الحوادث التاريخية، والاجتماعية، والثقافية، السياسية، الّتي أثرت بشكل كبير على الناحية الفكرية، والثقافية ليونس.

يُمكن "امتلاك الإنسان للمكان واقعياً، يمكنه من إنتاج ثقافته وهويته، فيتحدد بهويّة منتجيه، ويعود بدوره على شكل سلطة على منتجه، ويؤثر تأثيراً مباشراً في أدبه، وقد يساهم في تشكيل العناصر الأدبية دون وعي كامل به، كمّا أنه يعد علامة على دلالات الحدث الحكائي، فيستنطق المنهج الثقافي دلالته، أو إشارته إلى دلالة معينة، ومدى وعي المؤلف والمتلقي لها. وكل مكان يولد في الكتابة، قد يكون له ذاكرة خصوصية، كما يحيل إلى عناصر الذاكرة الجماعية، فتظهر مميزاتها الّتي تعكس روحها"[34]. وهي المراد من إبراز مواطئ القدم ومسرح العين لأن المكان هو الموطن الأول الذي يؤوب إليه العقل ويسرح فيه الخيال.

ب–الهُوّيّة الدينية:

إنّ العلاقة الّتي تجمع بين الأنا، والآخر (الجزائري/الفرنسي) "أساسها التميز والاختلاف، فإنْ حصل التوافق بينهما بالتقليد، كانت الأفضلية للنموذج ويكتسب المقلد هوية الآخر، أو يكسب هوية مشوشة ترنو إلى معالجة هوية الآخر"[35]، ولهذا كان جوهر الصراع اليوم الحرب على المقدسات، بل وإنْ كان السبب غير المباشر الذي دفع بفرنسا إلى التفكير باحتلال الجزائر هو الدين الإسلامي، لأنّ بمجرد احتلالها حاول هذا المستعمر التصدي له، عن طريق القضاء على المدارس القرآنية وتحويلها إلى كنائس، وغلق المساجد، وطمس الهوية الإسلامية، ولكن رغم هذه المحاولات بقي الجزائري محافظاً على هويته الدينية، وهذا ما نستشفه في الرواية.

يتضح من خلال ما صرح به (ياسمينة خضرا) على لسان أبطال روايته يدل على إيمانه الراسخ بالله سبحانه وتعالى، وهذا الإيمان هو أساس هويّة كل مسلم، فالاطلاع على القرآن، والتأثر بألفاظه، يظهر جلياً في قوله: "يتأمل المحصول الذي يعد أخيرا بفرحة أكيدة بعد سنوات عجاف من الجدب وقحولة الأرض..."[36]، وقد استمد ذلك من قصة سيدنا يوسف(عليه السلام) في قوله تعالى:﴿**قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِساتٍ يَا أَيُّها الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتمْ لِلرؤْيَا تَعبُرونَ**﴾(**يوسف، الآية34**) [37]، وفي بعض المواضع الأخرى نجد الفتى (يونس) قد حافظ على هويّته الأساسية من خلال النصائح المقدمة من طرف عمه (ماحي) الذي يذكره بآيات قرآنية حتى لا ينسى تعاليم دينه الحنيف، "لا تنسى ما يقوله القرآن: **منْ** قَتلَ نَفساً بغيرِ حق كأنّما قَتلَ النَّاس جميعاً"[38]. **تظهر صورة الأنا المتسامحة** دينياً، من خلال شخصية (جوناس)، وعلاقته بحبيبته الفتاة الفرنسية (إيميلي) الذي قرأ بعض الآيات القرآنية على قبرها، " قرفصت قرب قبر (إيميلي)، ضممت أصابعي على مستوى شفتي، وتلوت آيات قرآنية، ليس الأمر مستساغاً ومع ذلك أفعله، في عيون الأئمة والقساوسة نحن مختلفون، ولكننا متساوون في نظر المولى، قرأت الفاتحة، ثم آيتين من سورة ياسين"[39]، إنّ حقيقة وجود الذات الجزائرية والشخصية الفرنسية المستعمرة، يعني وجود التوتر، والصراع واختلال القيم الدينية، لكن مع ذلك يبقى الجزائري محافظاً على هويّته الدينية الّتي تُشكل كيانه، وانتماءه. وليبرز الكاتب انتماء الشخصيات أكثر استحضر قصة آدم (عليه السلام) الذي طرد من الجنة، فأسقطها على بطل

الرواية "آدم الذي طُرد من الجنة لا يكون تائهاً مثلي، وجوزة عنقه أقل صلابة من الجلطة الّتي بقيت وسط حلقي..."[40]، نجد أنّ الألفاظ الدينية تخدم وجهة نظر الكاتب، وتخدم الحياة العامة للأفراد، وهو بهذا الطرح طوّع الدين لما له من أهمية في تمسك الشخصيات بهويّتها الّتي باتت مهددة من طرف الآخر.

لقد كانت الرواية معتركاً لانتماءات دينية شتى، فظهر تأثر الروائي بالآخر من خلال تحديد هويّة شخوصه الدينية، فبرزت الهويّة المسيحية بصفة جلية من خلال الشخصيات الأجنبية، وما تداولته من طقوس، وممارسات مختلفة تمنح القارئ فرصة لقاء الآخر المختلف، وهو ما حدث مع (جوناس)، الذي خاض مغامرة الاغتراب الذاتي، والتمزق الهووّي حين تأقلم مع فضاء بمكونات ثقافية غيرية، تمثال الملاك، الصليب، والصلاة المسيحية، يقول: "غرفتي تقع في عمق الرواق، لوحات معلّقة على الجدران... فوق المدفأة الكبيرة، يوجد تمثال نحاسي لطفل بجناحين يقف على دكّة مربعة الشكل، يعلوه صليب.."[41]، ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل نجد عمه (ماحي) المتزوج (جيرمان) المسيحية، يحيا حياة أجنبية، ويبدي وعيه الكبير بثقافة الغير، فنجده يسرد لجوناس كيف عالجته الراهبات حينما كان مريضاً "لم يتمكن الأطباء ولا الدراويش من علاجي... إنَّ الأخوات الطيبات هن اللاتي أنقذن حياتي"[42]، نجم عن زواج العم (ماحي) ثقافة أجنبية أثرت في الطفل، فشاهد ممارسات عديدة للآخر يقول: "في يوم الصعود... صعدنا أوّلاً لزيارة القلعة القروسطية قبل أنْ ننظم إلى قافلة الحجاج الذين يطوفون حول مصلى "سانتا كروز"، كانوا بالمئات، نساء، وشيوخ، وأطفال يتزاحمون عند أقدام العذراء...أفهمتني لوسات أنّ المصلين اسبانيون، يحجون كل سنة في يوم الصعود، ويتحملون هذا الامتحان الشاق كي يشكروا العذراء على إنقاد مدينة وهران القديمة من وباء الكوليرا الذي أهلك آلاف العائلات في (1849)"[43] . الواضح أنّ جوناس كان يرصد هول التضحية التي كانوا يقومون بها "لم أكن أرى حجاجاً، بل هالكين في حالة ورع، ولم يبدْ لي الجحيم أقرب مثلما بدا لي في يوم الصلوات الكبرى..."[44].

لا يُمكن الحديث عن حوار الحضارات، وصراع الديانات، إلاّ في إطار الدين، الذي له دورٌ أساسي في بلورته، "فالحضارات الّتي تحاول أن تظهر مستقلة عن الأديان بعيدة عن تأثرها، في الحقيقة جاءت نشأتها كرد فعل تجاه الدين، والمثل الواضح القوي يظهر في الحضارة الغربية الّتي صورت نفسها في شكل حضارة علمانية مستقلة، عن الدين وتأثيراته، ورغم علمانية الحضارة

الغربية فهي مرتبطة بالمسيحية واليهودية، بل إنّها في أولى مراحل تطورها كانت مرتبطة بالإسلام"[45]، فالدين كان ولازال، وسيلة لتحقيق التقارب الحضاري بين الشعوب، على اختلاف مذاهبهم، وطوائفهم.

منح الروائي فرصة الولوج إلى عالم الديانات من خلال الصراع الحاصل بين الشخصية الروائية، وباقي الشخصيات من أطياف أخرى، وكانت دهشة (يونس) بادية من خلال ردة فعله، فهو لم يكن يتوقع وجود هذا النوع من البشر، خاصة لما علم بديانة جيروم (اليهودية) يقول: "لم يكن حولي إلاّ المؤمنون، عمّي مسلم، جرمان كاثوليكية، جيراننا من اليهود أو النّصارى، في المدرسة كما في الحي، كان الله (عز وجل)على جميع الألسنة وفي جميع القلوب..."[46]، ما زاد من حيرته أنّ جميع الأشخاص لهم إله يعبدونه إلاّ جيروم، "استغربت لرؤية جيروم يدبّر شؤونه بدونه، سمعته يقول لمبشّر انجيلي: إنّ كل إنسان إله نفسه، حينما يختار إلهاً آخر، يصبح أعمى وظالماً... حدّق في وجه الإنجيلي كما لو كان الشيطان نفسه"[47] . لم يحصر (ياسمينة خضرا) شخصياته ضمن نطاق محدود، بل نظر إلى الهوّية الدينية، من منظور التعايش السلمي، وهذا التفاعل بين الديانات ما هو إلاّ حقيقة واقعية، تؤكد انتماء الأفراد إلى طوائف متعددة، وهو ما أكده من قوله: "أغلبية سكان ريو صالادو اسبانيون أو يهود، فخورون ببناء كل منشأة في هذه القرية بأيديهم... تنبعث من ريو صالادو نشوة التعايش المنشرح..."[48].

لقد كانت الجزائر محطة بارزة لاستقبال ثقافات سخية، بفكرها، ومضمونها، وثرائها الفريد، والمتنوع، ولما كان الدين دستور الحياة، تشبث الفرد الجزائري بهويّته الإسلامية، أمام الزحف الغربي الذي حاول جاهداً القضاء على مقومات الوطنية (الدين، اللغة، العروبة).

ج–الهويّة السياسية:

سخر الروائي الجزائري (ياسمينة خضرا) قلمه، لفضح الممارسات الخفية للآخر المستعمر، فجسد صورة الصراع بين الشخصية الجزائرية، والسلطة الفرنسية، فكانت القضية الوطنية الشغل الشاغل للكُتاب الجزائريين، وهمّ الوطن من أكبر القضايا معالجةً، لأنّ الحرب الشاملة الّتي شنها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري أرضاً، ووجوداً، ومقومات روحية، ومادية دامت رحاها زمنا، فتنامى الحسّ الوطني بشكلٍ مفاجئ لدى الأفراد كبيراً، وصغيراً، وأضحت صورة الوطن تُحابه السياسة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

وعى الجزائري منذ نعومة أظافره، على قضايا الوطن، والوطنية، ولا ضير إذ قلنا أنّ العم (ماحي) كان من أبرز مدافعي الحركة الوطنية، فتعرضت له السلطة لمواقفه السلمية، النبيلة الّتي تخدم بلاده يقول (يونس): "كان عمي يستقبل ضيوفاً، بعضهم يأتي من بعيد، عرب، وبربر، يرتدي بعضهم بدلات أوروبية وبعضهم الآخر ملابس تقليدية، كانوا ناساً مهمّين، مُتميّزين جداً، يتحدث الجميع عن بلد اسمه الجزائر، ليس ذلك الذي يدرَّس في المدرسة ولا في بلد الأحياء الراقية، وإنّما بلد آخر مسلوب، ومستعمرَ، ومَقموع، والذي يجتر غضبه مثل أكل فاسد، جزائر جنان جاتو والانكسارات الجارحة والأراضي المحروقة والعذابات المتكرّرة والحمالين.. بلد يحتاج إلى إعادة تعريف حيث اختارت جميع متناقضات الكون أنْ تستنزف طاقته وتعيش على مدخراته"[49]، إنّ انتماء (ياسمينة خضرا)، إلى بلد اسمه الجزائر، جعله يحدد هويّة شخصياته، فرحلة الصراع السياسي انطلقت من الفكر التوعوي للشخصية العم المثقفة، " عمّي رجل ثقافة... متضامناً فكرياً مع القضية الوطنية الّتي بدأت تنتشر في أوساط النخب المسلمة، لقد حفظ عن ظهر قلب نصوص شكيب أرسلان، وكان يحتفظ بجميع المقالات النضالية الّتي تنشر في الصحافة... كان منشغلاً بالجوانب النظرية للتطورات السياسية، ... ولا يعرف من النضال إلاّ الخطب المتحمسة، والورش السرية، الّتي كان يساهم بتمويل قسط منها، والاجتماعات السرية الّتي كان مسئولو الحركة ينظمونها في منزله..."[50]، شكّلت الحركة الوطنية منعطفاً حاسماً في تاريخ الجزائر، تجند الكل لإنجاحها، وهو ما يظهر في حديث الفتى "كان وطنياً في القلب، أقرب إلى المبادئ النظرية منها إلى الحركة الجذرية الّتي كان يمارسها مناضلو حزب الشعب الجزائري..."[51]، ثم يضيف قائلاً: "كان ديمقراطياً تجريدياً، مثقفاً يؤمن بالخطب والبيانات والشعارات، ويغذي عدوانية دفينة اتجاه العنف، كان مواطنا محترماً للقوانين، واعياً بالمرتبة الاجتماعية الّتي منحته إياه شهاداته الجامعية ومهنته كصيدلي..."[52]، أثار هذا الموقف حيال الهوّيّة الوطنية ضغينة الشرطة فاعتقلوه، باعتباره واشٍ "لم يتصوّر نفسه في أية لحظة يُعتقل ويُعتّب باب مُحافظة الشرطة ويُرمى بزنزانة كريهة الرائحة ليقضي بها الليل برفقة الجرذان، والأشرار..."[53]، عرف المثقف الجزائري اضطهاداً واضحاً من قبل السلطة، والمتمثلة في الشرطة الجزائرية تارة، والقوات الفرنسية تارة أخرى، وذلك بغية قمع الفكر التوعوي الّتي تتمتع به هذه النخبة المثقفة في نشر مكائد الاستعمار.

تشهد الرواية أخبار سياسية متفرقة، "فجاءت سنة (1945)، بموجات أخبارها المتناقضة وهذياناتها، في ريو صالادو، يُحب النّاس الإفاضة في الحكي، وهم يتناولون كؤوس الأنيزات، يضخمون أدنى مناوشة، ويزينونها بأفعال حربية خرافية، وينسبون البطولة متخاصمين عادة ما يكونون غائبين عن ميدان الصراع، على شرفات المقاهي، تتزاحم التشخيصات والتقديرات..."[54]، كان وعي الشعب بمجريات الأحداث، وما يدور حولهم كافٍ لخلق جو التفاعل رغم حدّة الصراع.

واصل السارد ذكر أهم التفاصيل المتعلقة بالأوضاع السياسية، والتاريخية الهامة في الرواية، وفي أثناء حديثه لم يغفل عن أهم حدث تاريخي وسياسي غير مجرى الأحداث في الجزائر، انتفاضة 8ماي (1945)، "في الوقت الذي كانت الأرض تحتفل بنهاية الكابوس، ينفجر كابوس آخر في الجزائر، أكثر صاعقة من الوباء، أكثر وحشية من القيامة، تحوّلت الأفراح الشعبية إلى مآتم، في عين تموشنت، قمعت الشرطة مسيرات من أجل استقلال الجزائر، وفي مستغانم، امتدّت المظاهرات إلى القرى المجاورة، ولكن الرعب وصل إلى ذروته في الأوراس والشمال القسنطيني، حيث قتل آلاف المسلمين من قبل قوات الأمن المدعمة بالمليشيات الّتي شكلها المعمرون.."[55]، لاشك أن مظاهرات 08ماي (1945)، كانت نقطة تحول في حياة الجزائريين، إذ خلف التوتر المشحون بين الجزائر وفرنسا آلاف الضحايا، وقد كانت المحطات العربية شاهد عيان على تلك المجازر، وخاصة محطة tsf تحكي القمع الدموي الذي تعرّض له السكان المسلمون في كل من قالمة، وخراطة، وسطيف، والمدافن الجماعية حيث تتعفن الجثث بالآلاف، صيد العرب عبر الحقول والبساتين، إطلاق الكلاب الشرسة عليهم، والرجم الجماعي في الساحات العمومية، كانت الأخبار مرعبة..."[56]، كانت هذه المجازر وصمة عار في جبين الحضارة الفرنسية، "لأنّ الحضارة الفرنسية منذ ثورتها (1789م)، رفعت الإخاء، والحرية، والمساواة، وادعت لنفسها الحضارة والديمقراطية غير أنّ أعمالها العدوانية عامة، وأحداث 8ماي (1945) خاصة أسقطت القناع وكشفت زيف ادعائها..."[57].

احتضنت رواية (**فضل الليل على النهار**) الراهن السياسي بكل أبعاده، فكانت الهويّة السياسية طاغية بشكل كبير، لأنّ الكاتب بصدد التأريخ للتاريخ الجزائر في حقبة آنفة ميزها الظلم، والقهر، والاستبداد، من طرف الآخر المتسلط، فكرياً، وعقدياً وسياسياً، واجتماعياً.

د–الهويّة الحضارية:

كانت معالم الحضارة طافحة بإيماءات تبشيرية توحي بالوضع المزري الذي كان سائدًا في القرى، والمدن الجزائرية، فبدأت عوالم الحضارة منذ أن وطأ الفتى (جوناس) المدينة الجزائرية ذات نكهة أوروبية (وهران)، فركز (ياسمينة خضرا) على حالة يونس الروحية، فمن حصر نفسه في انتماء واحد مهمّ اضّطر إلى الاختيار بين بلده، وبين حضارة البلد المضيف، فوجد نفسه منقسماً، ممزقاً، ومحكوماً عليه بخيانة أحدهما، وأصبح الفتى يعيش حالة من القلق الوجودي نظراً للتغيرات المفاجئة.

تبدأ رحلة الاغتراب الحضاري خلال وصف الكاتب للأماكن، والأشياء الّتي صادفها الفتى أثناء تنقله إلى المدينة الأوروبية، فكانت نبرة الانبهار طاغية في المتن السردي ومن ذلك قوله: "كنت في كوكب آخر... أركض وراء أبي مبهوراً بالمساحات الخضراء الّتي تحدّها جدران صغيرة مصنوعة بالأحجار المنحوتة أو بسياجات من الحديد المطرّق، والشوارع العريضة المشمسة، والمصابيح الجامدة في بهائها، الشبيهة بحراس مضيئين..."[58]، لقد نقلت فرنسا حداثتها ومدنيّتها من أجل أغراضها الشخصية، وخدمةً لمستوطنيها القاطنين هناك، فمنحت للأهالي البائسة رؤية مناقضة لأوضاعهم المزرية، وهذا ما يظهر جلياً في حديث (جوناس): "تنبعث من هذه الأمكنة المحظوظة سكينة ورفاهية لم أتصور أنّها ممكنة الوجود، إنّها على نقيض تام من الرائحة الّتي تعفن قريتنا حيث تحتضر البساتين تحت الغبار، وتئن أكواخنا تحت بؤس يفوق بؤس حظائر الحيوانات..."[59]، لخصت هذه الثنائية الضدية، مزبلة تاريخ الكولونيالي بشعاراته الرنانة، الّتي تهدف لغايات خفية، أهمها طمس الهويّة الوطنية للبلاد.

لم يكن الفتى مندهشاً بالجانب المعماري للمدن الحضارية فقط، بل طال العديد من الأمور، فيقول: "...الشيء الغريب هو أنّ النساء لا يرتدين الحايك، يتجوّلن بوجوه مكشوفة، تضع العجائز قبعات غريبة فوق الرؤوس، أمّا الفتيات فيتبخترن في أجساد نصف عارية، الشعر المسترسل على الأكتاف معرض للريح، غير منزعجات من اختلاطهن بالرجال..."[60]، ثم يضيف قائلاً "كان بعض الشيوخ الأوروبيين يجلسون قرب أبواب منازلهم، الوجوه قرمزية اللون، يرتدون سراويل قصيرة وقمصان مفتوحة على بطونهم وقبعات عريضة فوق الرؤوس..."[61]، يبدو أنّ الصراع الداخلي الذي يُعاني منه الفتى جعله يقارن بين ما كان عليه، وما هو عليه الآن، "لا يوجد أقبح من تقلبات المدينة، يكفي أن تبتعد قليلاً عن البنايات الشاهقة الجميلة كي تجد

نفسك تتنقل من النهار إلى الليل، من الحياة إلى الموت...كنّا دائماً في وهران ولكننا كنا وراء الديكور، تركت المنازل الجميلة والشوارع المزهرة المكان لفوضى عارمة من الأكواخ القبيحة، والبراريك العفنة وخيم البدو المفتوحة للرياح ليل نهار، وزرائب البهائم..."[62]، عاش (جوناس) أزمة وجود حقيقة، فقد شكّل هذا التلاقح مع الآخر رؤية متناقضة عن الوضع العام في الجزائر، وهذا التعايش الذي جنح الروائي إلى تحقيقه من خلال شخصية (جوناس)، ما هو إلاّ رؤية استشرافية حول طبيعة العلاقات الّتي جمعت بين المستعَمر، والمستعمِر. إنّ الهوّيّة الثقافيّة "في حقيقتها عملية تفاعلية دينامية تقوم على جدلية الصراع والتوافق، وأنّ أي هوّيّة ثقافية تتعرض دوماً إلى تأثيرات داخلية، وخارجية خصوصاً في حالة وجود خلل، أو تأثيرات في مكونات العمل الثقافي، والمحافظة على الهوّيّة لا تعني الجمود والتقوقع بل لابّد من قيام عملية التفاعل ذلك أنّ مآل الثقافة المنعزلة هو الاضمحلال"[63] وهو ما أراد (ياسمينة خضرا) تحقيقه، لأنّ حياة الثقافات مرهونة بتفاعلها تأثيراً، وتأثراً.

عمد الاستعمار الفرنسي على إدخال الحداثة الغربية إلى الجزائر، بغية تحقيق خطابه التنويري، فانعكس ذلك على شخوص الرواية، ومن بينهم يونس، الذي عبرّ من خلال صفحات الرواية على مدى إعجابه بما يراه "كنت أكتشف مبهوراً، بأشياء العصور الحديثة...في المساء تعشينا في الصالون، غرابة أخرى، لم يكن عمّي بحاجة إلى قنديل بترولي كي ينير لياليه، يكفي الضغط على زر لتشتغل مجموعة مصابيح في السقف..."[64]، كان التناقض الذي يعيشه الجزائري صارخ، فسكان القرى يعانون من التهميش، والمعاناة، على خلاف سكان المدن الذين ينعمون بكافة وسائل الراحة، والرفاهية، وقد أبدى الفتى انزعاجه في حديثه عن أجواء انتقاله، والتأقلم على طريقة جديدة في العيش، "كنت منزعجاً جداً على الطاولة، أنا المتعوّد على الأكل في صحن واحد مع عائلتي، أحسست بنفسي مُتغرباً أمام صحن شخصي، لم أبتلع الشيء الكثير، انزعجت من النظرات المتواصلة الّتي تُراقب أدنى حركاتي..."[65]، من تجليات الهيمنة الثقافيّة الّتي مارسها الآخر تجاه الأنا، تجريده من مكونات هوّيّته، والمتمثلة في طريقة الأكل والشرب، واللباس، وتجريده من لغته، وحتى كنيته، ويظهر هذا الانشقاق في المقتطف التالي: "...يكفي أنني غيّرت ملابسي كي أربكهم... إلى اليوم لازلت أتساؤل إنْ لم يكن العالم في نهاية المطاف سوى مظاهر، تملك وجهاً شبيهاً بالورق المعجّن وكيس خشن على الظهر، فأنت فقير، تغسل وجهك، تمشط شعرك،

ترتدي سروالاً نظيفاً فأنت شَخْص آخر تماماً، ليست إلاّ اختلافات ضئيلة.. تربكك هذه اليقظات"[66]، وفي موضع آخر يوحي (يونس) للقارئ بمدى تمسكه بانتمائه الأول: "لقد ولدت، وقضيت طفولتي الأولى بين الحقول، وها أنا أسترجع معالمي القديمة، الواحد تلو الآخر، رائحة الحرث وصمت الأحجار، ولدت من جديد في ثوب قروي، مزهوا بإدراكي أنّ ملابسي الحضرية لم تغيّر طبيعة روحي، إذا كانت المدينة وهماً، فإنّ الريف انفعال متنام باستمرار..."[67].

قاوم (يونس) مغريات المدينة وتأثيراتها، إلاّ أنّ عوالم الحضارة اخترقت هويّته الذاتية، فبعد أنْ كان اسمه (يونس)، جردته المدينة من اسمه الحقيقي وأصبح يُدعى (جوناس)، ما اضطر لمواجهة صراعات عديدة بسببه، "آه، لم تكذب؟ اسمك (يوَنس)، أليس كذلك؟ (يونس)؟ لماذا تسمي نفسك (جوناس)؟ جميع النّاس ينادونني (جوناس)... ماذا يغيّر في الأمر؟ يتغير كل شيء، لسنا من عالم واحد، سيّد (يونس)...إنني من عائلة (روسيليو)، هل نسيت؟ هل تتصوريني متزوجة مع عربي؟ الموت أفضل..."[68].

لقد فشل (ياسمينة خضرا) في خلق جو التسامح والتواصل الإيجابي بين (جوناس)، (وإيزابيل)، باعتبار الخلفية الثقافية المختلفة بينهما (الثقافة الإسلامية، والثقافة المسيحية)، وظل الآخر يُكن العداء للأنا، فبقي هاجس الهوّيّة والانتماء، أهم أسباب الصراع بين الطرفين، هذا الصراع بين الشرق، والغرب بقي إلى يومنا الحالي، والذي بات حرباً سياسة لا محال.

وأخيرا نخلص إلى القول بأنّ سؤال (الهويّة) شكل هاجساً لسؤال العلاقة بين الشرق والغرب، فانشغل الروائي في استحضار صورة الآخر في عالمه الروائي، فرصد، وحلّل، تلك العلاقة الجدليّة الّتي تحكمها الظروف السياسية، والطائفية، والمذهبية، وباتت قضية الهوّيّة مؤشراً ضرورياً في السرديات المعاصرة، لأنّها طرحت مسألة المثاقفة بطريقة حوارية، حضارية، تدعو الفرد الإنساني إلى تغيير نظرته السلبية تجاه الآخر، والآخذ بناصية العلم، والمعرفة، والتقدم، الذي طرحته الحضارة الغربية كأحد أوجه الصراع الذي برز في الأعمال الروائية.

وعليه، فقد سعى ياسمينة خضرا في روايته (فضل الليل على النهار)، إلى تقديم صورة إيجابية تجمع حضارتين مختلفتين، فصحح النظرة السلبية تجاه الآخر، ودعا أبطال عمله إلى حوار حضاري خلاق، مفعم بالتواصل، والتلاقح، والانفتاح، فأخذت الهويّة تتشكّل تحت طائلة الآخر

ومكوناته الغيرية، فكانت هذه الرواية بمثابة رد صريح على الخطاب الكولونيالي الذي حاول جاهداً تهميش الأنا الجزائرية وتغييب ثقافتها المحلية.

هوامش:

[1] محمد مسلم، الهوية في مواجهة الاندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، د، ط، 2009، ص86.

[2] أليكس ميكشيللي، الهوية، تر: على طفة، دار النشر الفرنسية، ط1، 1993، ص09.

[3] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، عالم المعرفة، الكويت، 2013، ع398، ص15.

[4] تمام حسان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د، ط، 1994، ص34.

[5] صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، تر: طلعت الشايب، ط2، 1999، ص11.

[6] المرجع نفسه، ص11.

[7] عبد العزيز بن عثمان، الهويّة والعولمة من منظور التنوع الثقافي، منظمة الايسيسكو، ط2، 2015، ص17.

[8] سالم المعوش، الأدب وحوار الحضارات (المنهج والمصطلح، والنماذج)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د، ط، 2007، ص12.

[9] صامويل هنتجتون، صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، ص12.

[10] المرجع نفسه، ص12.

[11] سيد البحراوي، الحداثة التابعة في الثقافة المصرية، ميريت للنشر والمعلومات، ط1، د، ت، ص16.

[12] واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د، ط، 1986، ص68.

[13] يوسف الحسن، الحوار المسيحي الإسلامي الفرص والتحديات، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، د، ط، 1977، ص 41.

[14] حفناوي بعلي، أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللّغة الفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، د، ط، 2004، ص156.

[15] صالح صلاح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص91.

[16] تيري هنتش، الشرق الخيالي ورؤية الآخر –صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط–، تر: مي عبد الكريم حمودة، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط1، 2006، ص245.

[17] أمين معلوف، الهويات القاتلة، تر: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999، ص25.

[18]وانغ بين، الهوية من أجل حوار بين الثقافات، تر: عبد القادر قنيني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص48.

[19] عمر مهيبل، من النسق إلى الذات قراءات في الفكر العربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، د، ط، 2001، ص76.

[20]صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، دار المدى، دمشق، ط1، 2003، ص178.

[21] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، دار سيديا للنشر، الجزائر، د، ط، 2008، ص12.

[22]المصدر، ص12.

[23]المصدر، ص12.

[24]المصدر السابق، ص14، 15.

[25] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي (نشأته وتطوره وقضاياه)، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2012، ص27.

[26] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص13.

[27]المصدر، نفسه، ص70.

[28] عزالدين جلاوجي، سلطان النص، دراسات دار المعرفة، د، ط، 2008، ص46، 47.

[29] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص28.

[30]المصدر، ص28.

[31] المصدر، ص117.

[32]المصدر، ص157.

[33]المصدر، ص159.

[3434] حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهويّة في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص155.

[35] دانيال هنري، الأدب المقارن العام: باجو، تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د، ط، 1997

[36] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص14.

[37]سورة يوسف، الآية: 43.

[38]ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص253.

[39] المصدر، نفسه، ص512.

[40] المصدر، نفسه، ص168.

[41] المصدر، ص96، 97.

[42] المصدر، ص107.

[43] المصدر، ص142.

[44] المصدر، ص143.

[45] محمد حسن خليفة، المسلمون والحوار الحضاري مع الآخر، مركز الدراسات الشرقية، القاهرة، د، ط، 2003، ص09

[46] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص141.

[47] المصدر، ص141، 142.

[48] المصدر، ص159.

[49] المصدر، ص117، 118.

[50] المصدر، ص146.

[51] المصدر، ص146.

[52] المصدر، ص146.

[53] المصدر، ص147.

[54] المصدر، ص238.

[55]المصدر، ص240، 241.

[56] المصدر، ص241.

[57] البشير الابراهيمي، من مآثر 8ماي في ذاكرة البشير الابراهيمي، مجلة الذاكرة، العدد 2، 1995، ص08.

[58] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص29.

[59] المصدر، ص28.

[60] المصدر، ص29.

[61]المصدر نفسه، ص30.

[62] المصدر نفسه، ص33.

[63] مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، د، ت، ص170.

[64] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص96.

[65] المصدر نفسه، ص96.

[66] المصدر، ص115.

[67] المصدر، ص.160

[69] المصدر نفسه، ص167.